من وراء البحار

تأثير العامل الجغرافى فى روسيا

يقول دافيدسون هاوستون فى مقال بمجلة «ناشنال ريفيو» عدد نوفمبر : إن الأحوال الطبيعية كان لها تأثير كبير فى تاريخ الأمة الروسية كما كان لها شأن فى تاريخ جميع الأمم . فاننا إذا بحثنا أصل الأمة الروسية وتتبعنا أثر امتدادها حتى صارت إمبراطورية كبيرة ، وجدنا أنها تمت بسلسلة من الاندفاعات كان تطورها اتباعاً لأغراض سياسية ، ولكن اتجاهاتها خاضعة لاعتبارات تتصل بطبيعة البلاد .

فتلك البطون من الجنس السلافى التى تعرف باسم روسيا الكبرى وروسيا الصغرى وروسيا البيضاء ، كانت تتألف قبل القرن التاسع من عدة قبائل تسكن حوض نهر الدنيبر . وكانت حياة هذه القبائل بدائية وغير منظمة تقوم على صيد حيوانات الغاب واستخراج الأسماك من مياه الأنهار . وكانت هذه الأنهار هى الوسيلة الوحيدة للانتقال والاتصال . وكانت تقوم بين هذه القبائل حروب ومنافسات كما كانت تهاجمها القبائل التى تجاورها . وأخذت هذه القبائل تتجمع فتؤلف عدة إمارات . على أنه كانت تقيم إلى الشمال منها وإلى الغرب قبائل أخرى ذات نزعة حربية هى قبائل الاسكندناف والبولونيين واللتوانيين والطوطون ، وكانت هذه القبائل تغير على أرض القبائل السلافية وتستولى على أجزاء منها ، على حين كانت القبائل السلافية تجد ضغطاً فى جنوبها من قبائل التتار التى استطاعت بين ١٢٣٨—١٤٦٢ أن تسيطر على أراضى الزعماء الروس فى الجنوب . ولكن الروس استطاعوا فى هى الغابات أن يتجمعوا . وفى حوالى سنة ١٤٨٢ ألفوا منهم اتحاداً ، وانتخبوا أميرا مسكوفيا قيصراً على جميع الروس ، وأخذوا يطردون الجيوش الأوربية وجموع التتار من المساحات التى تكتنفها الغابات .

فلما أن زاد بعددهم وقوتهم أخذوا يتحركون نحو الأراضى المنبسطة حيث المراعى والزراعة ، وبذلك دفعوا باللتوانيين والبولونيين إلى الغرب ، إلى أن وقفتهم الدول الغربية القوية التى كانت قد تألفت . ولكن دولة التتار كانت قد أصابها الضعف فى القرن السادس عشر ، فاتسعت رقعة الروس شرقاً وشمالا وجنوباً إلى أن شملت أودية أنهر الدنيبر والدون والفولجا وفروع هذه الأنهر .

على أن الاتساع نحو الشمال لم يلبث أن وقف حين وصل الروس إلى المنطقة المتجمدة حيث لا يجدون إلا موسما قصيراً لصيد الأسماك ، وحيث تصعب الملاحة مع تجمد الأنهار . وقد وجدوا فى الجنوب قوة من البولونيين واللتوانيين الذين كانوا يحتلون ما يعرف الآن بأوكرانيا ، كما كانت جبال القوقاز واقعة فى أيدى الأتراك والفرس . أما التتار فكانوا على ما أصابهم من ضعف يشغلون أراضى نهر الفولجا فى أسفله . فكان أضعف مكان فيما يحيط بهم هو الأودية الممتدة إلى الشرق من نهر الفولجا فى أعلاه .

وعند ما سقطت قازان عاصمة التتار فى أيدى الروس فى القرن السادس عشر ، لم يلبث الروس أن وصلوا إلى خط جبال

الأورال . ولم تأت سنة ١٦٩٣ حتى كان الروس قد وصلوا إلى شاطئ المحيط الهادى .

على أنهم وجدوا مقاومة من حاميات المنشو على نهر أمور . واضطر الروس إلى عقد معاهدة مع الصين ، على أن ينسحبوا إلى نهر أرجون ومع ذلك استمروا فى التقدم إلى الشمال الشرقى حتى وصلوا شبه جزيرة كمتشاتكا فى سنة ١٦٩٧ وعبروا بوغاز بهرنج واستولوا على ألاسكا فى القارة الأمريكية فى سنة ١٧٤١ . وظلت فى أيديهم تلك المنطقة إلى أن باعوها للولايات المتحدة فى سنة ١٨٦٧ قبل أن يكتشف الذهب بها .

وفى هذه الأثناء زالت سطوة التتار وضعفت قوة البولونيين واللتوانيين ، واستولى الروس على الأوكرين وعلى شمال بحر قزوين . ولم يأت القرن السابع عشر حتى كانت روسيا دولة ذات قوة وبأس تستغل أراضى واسعة ، وكانت تعمل لايجاد وسائل للتجارة . ولذلك انتقل بطرس الأكبر من موسكو إلى بطرسبرج لكى يجد نافذة تطل على أوربا فى بحر البلطيق . وكان بود لو يجد منفذاً آخر للتجارة من البحر الأسود ، غير أن تركيا كانت مسيطرة على البوسفور والدردنيل . ومن هذا العهد أخذت روسيا تتطلع إلى إيجاد طريق لها فى هذا الاتجاه لكى تتفادى طرق أنهارها ومياهها الملحة التى لا تصلح طول السنة للملاحة لأنها تتجمد أحيانا .

ولقد استطاعت روسيا فى الشرق أن تتسع عند ما ضعفت الامبراطورية الصينية ، فاستولت على أراض كثيرة فى القرن التاسع عشر ، وتمكنت من إقامة ميناء فلاديفوستوك فى سنة ١٨٦٠ ، حيث أقامت حواجز تقى من الثلج ، فأمكن فتح هذا الميناء طوال السنة ، وأخذت تضغط على منشوريا .

ولم تأت سنة ١٩٠٤ حتى كانت منشوريا تحت حماية روسيا ، وكوريا تكاد تقع تحت الحماية كذلك . فهبت اليابان لانقاذ نفسها من روسيا التى كانت تهدد استقلالها نفسه . وبعد أن انتصر اليابانيون صارت لهم السيطرة فى منشوريا وكوريا مدة أربعين سنة . ولكن بعد هزيمة اليابان فى الحرب الأخيرة أخذ النفوذ الروسى يعود إلى تلك الأنحاء .

ويرى من ذلك أن الحدود الحالية للاتحاد السوفيتى كانت نتيجة أحوال جغرافية . ولنلق الآن نظرة على العوامل التى يتوقف عليها ثبات تلك الحدود .

فاذا نظرنا أولا إلى الغرب وجدنا أن الاتساع الروسى كان نتيجة للمقاومة السياسية أكثر منه نتيجة لمقاومة جغرافية . وقد أدى انهيار الامبراطوريتين الألمانية والنمساوية إلى زيادة النفوذ الروسى . كما أن الشيوعية زادت من نفوذ الروس ، أنها فى ذلك شأن العرب الذين زاد من نفوذهم اعتناق الأمم للاسلام . ولقد بسط الاتحاد السوفيتى نفوذه الاقتصادى على الدول الصغرى المجاورة له . وفى ذلك فائدة كبيرة له فصلا عن ضمان حربى . ومما يدل على رغبة الروس فى الوصول إلى الموانى الواقعة على مياه حارة تأييدهم لليوغوسلافيين فى ادعاءاتهم الخاصة بتريستا ، وتشجيعهم للألبانيين فى النفوذ إلى مضيق كورفو ، وتأييدهم للبلغاريين فى طلبهم لمخرج إلى بحر إيجه ، واهتمامهم بادارة المستعمرات الايطالية السابقة فى شمال إفريقية ، ورغبتهم المستمرة فى السيطرة على بوغازى الدردنيل والبوسفور ، وهى الرغبة التى تعكر صفو العلاقات بين الروس والأتراك .

واذا اتجهنا إلى آسيا الوسطى وجدنا الروس يهتمون اهتماماً شديداً بايران حيث موارد البترول فى أذربيجان قد زادت قيمة

لدى الاقتصاد السوفيتي الذي زاد اتساعا. كما أن إنشاء السكة الحديدية في إيران قد زاد في تحسين الاتصال بين جهات بحر قزوين والمياه الحارة في الخليج الفارسي. ولقد اتخذت روسيا من الاقليات الأذربيجانية والارمينية والتركية في تلك الجهات، فضلا عن الدعاية الشيوعية، وسيلة لتزيد من نفوذها في إيران، لولا وجود النفوذ البريطاني وموقف هيئة الأمم المتحدة أخيراً.

ولا تعتبر الحدود المتاخمة للافغانيين ثابتة لأمرين: أولها أنه يفصل بينهما نهر والأنهر ليست حدوداً طبيعية جيدة، لأن الناس يميلون إلى التكاثر والتكتل على جوانب الأنهر. وثانياً لأن القبائل الساكنة في شمال الأفغان من الأزبك والطاجك قريبة لشعوب السوفييت وليست قريبة في جنسها إلى أهل كابول.

وإذا انتقلنا إلى الشرق وجدنا أن نفوذ الروس في منغوليا صار عظيما بعد انهيار النفوذ الياباني. وكذلك زاد نفوذهم في منشوريا، وإن كانوا قد سلموها للحكومة الصينية، ولكن أعوانهم من الصينيين الشيوعيين قد استطاعوا أن يملأوا هذا الفراغ.

ولم تبق موانع طبيعية تحول دون امتداد نفوذ السوفييت في بلاد الصين. أما كوريا التي كانت خاضعة لليابانيين فانها منذ سنة ١٩٤٥ انقسمت إلى قسمين: أحدهما يحتله الأمريكانيون، والآخر يحتله الروس والحد بينهما صناعي.

ويمكن تلخيص العوامل الجغرافية التي تسيطر على السياسة الروسية فيما يأتي:

أولا: إن الحدود الواسعة التي هي — وفي الغرب بصفة خاصة — معرضة للهجوم الحربي والتي يمكن في كل مكان اقتحامها بالأسلحة الحديثة مثل القلاع الطائرة والطيارات الصاروخية، قد دفعت الروس إلى الحصول على أراض جديدة أو مناطق، لتحول دون إقامة العدو لقواعد حربية وصناعية. ولذلك كانت روسيا من هذه الجهة مهتمة بفنلندا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا ومنغوليا ومنشوريا وكوريا واليابان.

ثانيا: ان الحاجة للوصول إلى البحار الحارة تدفع روسيا دفعا شديدا. فقد دل التاريخ على أنه ما من أمة استطاعت أن تزيد من مواردها دون الاتصال البحري مع الأمم الأخرى. فالمحيطات من خير الوسائل للاتصال بين الأمم في حين أن الحدود الأرضية تفصل بينها. وروسيا من بين جميع الدول الكبرى سيئة الحظ من هذه الجهة. فأنهارها الكبيرة، وهي من أطول أنهار العالم، تتجمد أربعة شهور أو خمسة شهور في السنة؛ على حين يكون بعضها قليل المياه في الصيف. ثم انها تجري في اتجاهات خاطئة، فبعضها يصب في المنجمد الشمالي وبعضها في البحر الأسود المقفل وبعضها في بحر قزوين الذي هو شبه البحيرة. لذلك ننتظر من روسيا أن تكون دائمة الاهتمام بشبه جزيرة البلقان والبواغيز والخليج الفارسي ومنشوريا وشمال الصين وكوريا وربما كانت الهند كذلك؛ إلا إذا تطور الطيران تطوراً كبيراً حتى يحل محل الطرق البحرية.

فرنسا وسياستها بعد الحرب

تنشر مجلة القرن التاسع عشر وما بعده عدة أحاديث أجراها الكاتب سيبان مع بعض الزعماء والكتاب المشهورين فى فرنسا . وقد نشرت المجلة فى عدد نوفمبر أحد هذه الأحاديث . وستوالى نشر بعضها ، وستصدر الأحاديث جميعاً فى كتاب قريباً يصدره سيبان عن حركة التحرير .

قابل الكاتب سيبان الزعيم الفرنسى والأديب المعروف جان كاسو فى مارس سنة ١٩٤٥ . وكان كاسو من زعماء حركة المقاومة الفرنسية للاحتلال الألمانى . وكان يعمل سفتشاً لهذه الحركة فى المنطقة الجنوبية من فرنسا . ونظم أول حركة خفية كانت تتصل بلندن لاستقبال الرجال الذين ينزلون بالمظلات . وقبضت عليه حكومة فيشى بعد اكتشاف مستودع كبير للأسلحة بمدينة تولوز ، كان مليئاً بالديناميت والمسدسات . وفى السجن ألف مجموعة من الأناشيد . وانتخب فى سنة ١٩٤٦ رئيساً للجنة الوطنية للمؤلفين . وهو الآن مدير لمتحف الفنون الحديثة بباريس ويتولى رياسة تحرير مجلة أوربا .

يقول سيبان إن كاسو رجل لا يعرف الالتواء فى عباراته ، وقد أتى عند ما قابله بزجاجة من الكونياك وأخذ يفرغ ما فيها لنفسه وللضيف . وهو يسكن داراً كبيرة فى ضواحى تولوز مع زوجته التى تعد من كبار العازفات على البيانو .

ابتدأ سيبان الحديث بأن سأله عن الجرح الذى أصابه فى رأسه ولم يكد يشفى منه . فقال ضاحكا : إنه أصيب به حينما كان يقود سيارته قبيل تحرير مدينة تولوز ، وقد جازف إذ وضع عليها الراية الفرنسية المثلثة الألوان ، وكان لا يزال بالدينة عدد من جنود الأعداء وهم جميعاً من الروس الذين التحقوا بخدمة ألمانيا ، فوقفوا السيارة ورأوا أحد ركابها واضعاً شارة حركة المقاومة ، فانهالوا عليه بالضرب حتى قتل . وأصيب كاسو بضربة فى رأسه فأغمى عليه وترك بين الحياة والموت . ثم طلب كاسو ترك الحديث فى هذا الموضوع ، واتجه يشرح رأيه فى حالة فرنسا قائلا :

« قد تدهش لحالة فرنسا ولكن دعنى أفسر . فمما لاشك فيه أن هنالك قطيعة بين فرنسا وحكومة ديجول ، وأن العلاقة بينهما هى مأساة . وتتخذ حكومة ديجول فى معاملتها للشعب الفرنسى هيئة المعلم حين يرى تلاميذ أشقياء »

وقال : قد يفهم الانجليز أن هنالك حركة اندفاعية من جميع الطبقات ترغب فى التجديد وليست هذه الحركة مناورة شيوعية أو ما يشابهها .

الواقع أنه تأسست تحت حكم الألمان الأداة الادارية لاستقلال المناطق بأمورها وهى أداة قوية . لذلك أرادت هيئة المقاومة بعد تحرير البلاد أن تستفيد من الفرصة السانحة فتصلح من الأمور وتبدلها بما يشبه أن يكون ثورة ، حتى لا يكون التحرير مجرد رحيل للألمان . وكان أقل ما ينتظر ألا يعود نظام الجمهورية الثالثة من جديد ؛ وهذا أدنى ما يجب أن ينتظر بعد حركة التحرير .

ولقد كانت حركة المقاومة تضم جميع العناصر من سائر الأحزاب ، فكان من الطبيعى أن يؤمل فيها القضاء على الأحزاب القديمة .

وسأله محادثه الانجليزى عن اعترافه فى

أثناء الحديث بأن حركة المقاومة كانت تتألف من الأقلية ، فأجاب كاسو : أجل ! ولذلك وجدت الحركة صعاباً عند ما أرادت أن تتولى السلطة ؛ إذ كان ينقصها تأييد الجماهير . ولقد ارتكبت الحركة بعض الأخطاء بأن اتبعت بعض الطرق غير النظامية بعد التحرير ، وهي طرق كانت وافية بالغرض قبله . وكان الواجب على حركة المقاومة أن تعمل لاسترضاء الجماهير ، وكان من نتيجة ذلك أن أخذت الحزبية القديمة تتجمع .

قال الكاتب الانجليزى : إن الانجليز لا يفهمون حركة التطهير . فقال كاسو : لقد ظلت فرنسا أربع سنوات خاضعة للخيانة والأكاذيب بل ظلت أكثر من ذلك . فقبل هذه المدة كانت هنالك الحبشة وأسبانيا ومونيخ . وقد غلبت فرنسا فى أعز شئ لديها ؛ وليست فرنسا بممسحة للأقدام . ولقد شهدت الألمان وهم يسودونها بسبب التعاون الداخلى من رجال فرنسيين . وفيما يتعلق بالصحافة التى يدهش الأجانب لشعور الوطنيين بالعداء نحوها ، كانت هذه الصحافة قد سممت الرأى العام . وكان الكاتب موراس ذو النزعة الملكية وأمثاله يسيطرون على رجال السياسة . وأؤكد لك أن رجلا مثل بوانكاريه كان يتصبح فى سرعة جريدة أكسيون فرانسيز فى الصباح ليرى ماذا تقول عن زوجته أو عن أنه قصد فى الليلة السابقة أحد المواخير .

وفوق هذه الأمور يجب ألا ننسى الهدنة . ولم نعد نستطيع منذ سنة ١٩٤٠ أن نلوم أحداً . فقد شعر الفرنسيون بأن الهزيمة كانت منظمة . ومثل هذه الهزيمة هى أخجل الهزائم فى التاريخ وقد جادت على أثرها أربع سنوات قضيت فى حمأة العار .

فسأله الكاتب الانجليزى أهو يرغب فى المحالفة الشيوعية ؟ فقال له جان كاسو : إنه يرى فيما يتعلق بالشيوعيين ألا تثير حركة المقاومة شقاقاً معهم ؛ فان هؤلاء الشيوعيين قد بذلوا فى الحرب مجهوداً كبيراً وسياستهم هى عظمة فرنسا . ثم قال : إن المحافظين فى فرنسا يختلفون عن المحافظين فى انجلترا . فالأولون رجعيون لا يعملون للتقدم على حين لا يتحرج الآخرون فى انجلترا فى قبول أنظمة حديثة .

وصرح كاسو فيما يتعلق بالمستقبل ، أن الأمل معقود على أن تسترد إسبانيا وإيطاليا حريتهما ، فتكونا أساساً لتجدد الغرب . وعند ما سئل وماذا يكون من شأن الروس ؟ قال : إنهم مشغولون بالبلقان . ولذلك فان إيجاد جماعة ديمقراطية غربية تسير بالثورة حسب غرضها لا حسب قواعد مرسومة قد يكون يسيراً . وستكون أسبانيا محك مثل هذه السياسة . ولعل انجلترا تؤيد مثل هذه الحركة الديمقراطية .

أنطون الجميل

كان خطباً فادحاً ذلك الذى ألم بالأدب العربى والسياسة الشرقية والصحافة المصرية ، حين توفى المغفور له أنطون الجميل باشا ، رئيس تحرير « الأهرام » فى الثالث عشر من شهر يناير .

وقد كانت وفاته فجاءة غير منتظرة ؛ إذ كان الفقيد عشية اليوم الذى توفى فيه كأحسن ما يكون الانسان صحة ، وكأقوى ما يكون قوة ، وأكمل ما يكون نشاطا .

فقد شهد جلسة المؤتمر بمجمع فؤاد الأول للغة العربية ، وعمل فى « الأهرام » كما تعود أن يعمل إلى أن قارب الليل ثلثيه ، وعاد إلى داره فاذا الموت ينتظره فيها .

وكان أنطون باشا الجميل أديباً مترف الأدب رفيع الفن صافى الذوق مرهف الطبع .

ظهر ذلك فى شبابه حين أصدر مجلة « الزهور » واتصل ذلك فى حياته كلها ، فكان أروى الناس لبيت جيد واحفظه لفصل رائع كما كان أرقهم منطقا وأعذبهم حديثاً .

وقد عمل فى مناصب الدولة ؛ فكان نموذجا للموظف المتقن لعمله فى أمانة وحذق وفطنة . ثم ترك مناصب الحكومة وتولى رياسة تحرير « الأهرام » فكان مثالا للصحفى البارع الفطن والسياسى الماهر اللبق نفذ « بالأهرام » فى رشاقة أى رشاقة من أشد المواقف السياسية فى مصر والشرق دقة وحرجا . وعين فى مجلس الشيوخ ، فكان برلمانيا ماهرا لبقا موفقا بين المختصمين مؤلفا بين المختلفين . وعين فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، فكان ابتسامة متصلة فى جوه الذى يأخذه الجد من جميع أقطاره . وكان فيه كما كان فى مجلس الشيوخ موفقا حين يكون الاختلاف ورفيقا حين تشتد الخصومة . وكان مكتبه فى « الأهرام » ناديا سياسيا أدبيا من أحفل الأندية فى الشرق العربى وأبعدها أثرا فى الحياة العامة والخاصة وكان على هذا كله رفيقا بالشباب عطوفا عليهم موجها لهم . وكان أوفى الناس لصديق وأحفظ الناس لسر وأحسنهم محضرا وآمنهم على غيب .

فليس غريبا أن تكون المصيبة فيه عامة والمحنة به شاملة ، و أن يأسى لفقده أصحاب الأدب والسياسة والصحافة فى مصر والشرق العربى ، بل العالم الاسلامى كله وبيئات كثيرة من بيئات الأدب والصحافة فى الغرب .

أحسن الله عزاءنا عن فقده وألهمنا جميل الصبر على مصيبتنا فيه .